الكاتب يسائل عصره

ورقة مقدمة لندوة:

الرواية المغربية اليوم: أسئلة الذات والمجتمع

الرباط

24 . 25 . 26 يوليوز 2008

. 1 .

من غير شك فإن الكاتب يحيا عصره، ويسائل قضاياه ووقائعه، و يتخذ من تلك القضايا والوقائع موقف القبول أو الرفض. وحيث إن قضايا ووقائع عصرنا الراهن، تبدو متثملة في غزوات يقوم بها النظام العالمي الجديد ذو القطب الواحد لبلدان تم احتلالها عسكريا، بدعوى امتلاك أسلحة الدمار الشامل كما حدث مع العراق، وهو ما لم تثبت صحته على أرضية الواقع، أو بدعوى الإرهاب، كما حدث في أفغانستان، إضافة إلى قضايا الحروب الأهلية والمجاعات التي تعرفها بعض البلدان الإفريقية، وتَفَرُّقِ الشمل السياسي في لبنان وفلسطين، والغطرسة الإسرائيلية التي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية، والحرب الطائفية، وفشل مفاوضات مانهاتن في خلق توافق سياسي على أرض الصحراء المتنازع عليها بين المغرب والبوليزاريو الذي تدعمه الجزائر، وضعف فعالية المنظمات العالمية كالأمم المتحدة والجامعة العربية ومنظمات أخرى في أداء دورها الذي تنص عليها مواثيقها، وتردد الاتحاد الأوربي بين مصالحه وبين مصالح البلدان التي لها شراكة متعددة الأطراف معه، واندحار حقوق الإنسان في أكثر من بلد من بلدان العالم، وحيث عادت تجارة العبيد إلى أوربا من خلال مافيات أوربية لتهريب أطفال سود من إفريقيا إلى أوربا، وتشغيل الأطفال والمراهقين في الحروب والصناعات المضرة، وهو ما يمنعه ميثاق الأمم المتحدة، وظهور منظمات إرهابية تمارس تفجير المنشآت المدنية والتفجير الذاتي بأحزمة ناسفة، حتى صار كل أحد في هذا العالم يتمنى لو بدأ العالم، حسب الأسطورة التوراتية، من الماء والظلام، وحتى صار كل أحد

كذلك، يتمنى لو عاد العالم إلى الخلق الأول، وإلى أسطورة آدم وحواء وقابيل وهابيل،حسب الرواية التي جاء بها القرآن للخلق الأول.

وسواء أكان ماء وظلاما، أو خطيئة أولى هي التي أخرجت آدم من الجنة، وحيث ذهبت تلك الخطيئة في اتجاه قتل قابيل لأخيه هابيل، فالأمر سواء. الحروب التي كانت بين القبائل والشعوب هي حرب أخرى تقوم اليوم، وما يختلف بينها هو أدوات التقتيل والتنكيل بالإنسان، من السيف إلى المنجنيق إلى المدافع إلى إغارة الطائرات، ومن الطلائع التي كانت تتقدم الجيوش إلى الجاسوسية والاستعلامات والاستخبارات، من السلاح الكيماوي إلى السلاح النووي. تاريخ واحد يجتمع في عصرنا، ليشمل كل العصور، من البدائية وإلى تكنولوجيا قتل الإنسان.

الإنسان الفقير المستضعف في الأرض كان سيموت، سواء قتلته المجاعات أو الحروب. لكن الإنسان الذي يبقى حيا فوق هذه الأرض، وبغطرسة قوته وامتلاكه للتكنولوجية وأدوات التقتيل الجماعي، سوف يظل حيا في موته، لأن ضميره ليس معذبا بجرائم الحروب والإبادات الجماعية، ومحو تارخ الشعوب، وتدمير تراثها الحضاري والإنساني.

.2.

ما معني أن يسائل الكاتب عصره، وهو لا يقرأه على ضوء عصور أخرى مارست فيها أنظمة الحكم قهر معارضيها والتنكيل بهم وتعريضهم للمشانق؟

إذا كان التاريخ يعيد نفسه، فما معنى استعادة همجية التاريخ في زمن حضاري ارتقت فيه معاني احترام الإنسان من خلال حقه في العيش والحرية والتعبير، واحترام لونه وعرقه وجنسيته ولغته، سواء أكان أقلية داخل أكثرية، وعدم تعريضه للظلم والقهر والتعذيب؟ إذا كانت هذه القيم الحضارية التي جاء بها ميثاق الأمم المتحدة، فهل استوعبها ونفذها حكام الوقت، وخاصة منهم حاكم النظام العالمي الجديد، راعي دولة إسرائيل.

إن الإرهاب هو اليوم، وفي عصرنا، ليس سوى بديل عن إرهاب آخر يتمثل في إقصاء الآخر، وفرض الديمقراطية على شعوب ما تزال تعيش كقبائل، وبقوة السلاح الأمريكي، وأنا هنا لا أمجد الإرهاب سواء من جاء من هذا الطرف أو ذاك، بل إنني أتأمل بعض القيم الجديدة التي جاء بها عصرنا، كالمثاقفة، والتسامح الديني، وحوار الأديان وحوار

الحضارات، وانتشار سياسة الاقتسام والمشاركة، أجد أنها قيم إيجابية تمنح دفقا جديدا للقاء بين الإنسان والإنسان أينما وجدا، وبغض النظر عن العرق واللون واللغة، ففي منطقة البحر الأبيض المتوسط، كامتداد طبيعي جغرافي بين إفريقيا وأوربا، كان لابد لهذه المبادئ الإنسانية أن تشكل لُحْمَةً إنسانية عميقة بين الإنسان والإنسان، لولا العوائق التي ترجع هيمنة مصالح طرف الضفة الأوربية على مصالح طرف الضفة الإفريقية، ولولا تهريب البضائع وتهريب اللحم الآدمي وتجارة المخدرات والهجرة السرية.

في الصلة بين التابع والمتبوع، وبالمرجعيات التي تعود إلى الاستعمار والاستعمار الجديد، لا توجد حلقة مفرغة، بل يوجد تصميم من شمال دول الأبيض المتوسط، على تبعية اقتصادية وسياسية وعسكرية لدول جنوبه. كيف يمكن لشاطئ البحر الأبيض المتوسط أن يتوحدا، على الأقل، في القيم الإنسانية المشار إليها سابقا، وما هو المشروع الثقافي والحضاري الذي تعده الدول الواقعة على بحر الأبيض المتوسط للتساكن على حوضيه بمباديء وقيم مشتركة؟

. 3 .

عودة إلى الكاتب وهو يسائل عصره، هنا والآن، في المغرب، فأنا أشهد على أن التجربة الديمقراطية في المغرب، وهي ذات إيجابيات كثيرة، بدأت من السياسي، كهياكل تتمثل في المؤسسات المنتخبة، ولم تبدأ من الإحساس الشعبي، والتربية على المواطنة، وتخليق الحياة السياسية، بل إن قرار الاختيار الديمقراطي قد جاء بقرار سياسي من القصر الملكي، وبعد بطش السلطة برموز اليسار وإخصاء للمعارضة، وتشكيل أحزاب أضعفت قوة المعارضة الحقيقية، فكان "مناضلوها" رؤساء حكومات خرجوا من رئاسة الحكومة ليشكوا أحزابا تفوز في الانتخابات بالأغلبية.

رغم هذا المنعطف الذي أتي إلى العمل السياسي بأناس ليس لهم تاريخ في النضال الوطني ليصبحوا زعماء أحزاب، طفيلة، تنامت معها أحزاب طفيلة أخرى، فأنا أشيد بالمبدأ الديمقراطي، وبالمؤسسات الديمقراطية، على بلقنتها التي وصلت إليها الآن.

.4.

لست منظرا إيديولوجيا، ولا حاملا لصفة حزبية سياسية. مع ذلك، فأنا أجد في تأمل العصر المغربي الكثير من التراجع عن القيم التي كانت سائدة في الماضي، وأهمها قيمة التضحية، التي توارثها المغاربة منذ عهد الكفاح الوطني من أجل الاستقلال، وغذوها بروح أخرى هي التي ذهبت مع هبوب رياح التغيير في الستينات والسبعينات والثمانينات من القرن الماضي، سواء في العمل السياسي أو النقابي أو الجمعيات الثقافية أو مؤسسات المجتمع المدني، وحيث كانت التضحية مبدأ إنسانيا جميلا يستشعر بقيم المواطنة والإحساس بمعنى الوطن، فكما كان الناس يبذولون أرواحهم من أجل الدفاع عن حرية الوطن في مرحلة الوطن، وجد أناس آخرون بعد الاستقلال يبذلون من جيوبهم، وحتى وإن لم تكن لهم ثروات، من أجل تثبيت قيم التضحية، من أجل اجتماع سياسي أو ثقافي أو إبداعي، وفي هذا الحياض الدافق بمعاني التضحية تربيت تربية على أن كل ما نقدمه هو لهذا الوطن، إلا أن رياحا أخرى جعلت من الفاعل السياسي طالب منصب ومن الفاعل الثقافي طالب تعويض مادي ومن الفاعل الجمعوي سارقا لحصة من الدعم الذي يحصل عليه. فما حسرتي!

.5.

ككاتب روائي، عندما أفكر في عصري وأسائله وأتأمله. ولكي أكتب عن العصر فلابد من استحضار عصور أخرى فعلت فيه وأثرت على توجهه. إنه الجدل الحاصل بين ماضي الحاضر وبين حاضر الماضي. هو نوع من الجدل بين قيم منهارة وأخرى قائمة، وعلى زيفها فهي مهددة بالانهيار. كتاباتي الروائية، من خلال أحداثها لا تحمل معنى انهيار المجتمع والسلطة والكون، ولكنها تحمل معنى قلق الكائن والممكن. لست مستريحا لأوجاع العالم، وأنا قلق بأوجاعه، فمن الطبيعي أن أكتب في رواياتي شخصيات تحمل هذا القلق الاجتماعي والسياسي، كما هي تحمل قلق الذات، وأنا من يحمل قلقها المضاعف، لأنه قلق حيواتها، وقلق تشكيل الكتابة لهذه الحيوات من الواقع.